

مصارعة الثيران في الأندلس

إبان الحكم الإسلامي

الدكتور: صلاح جرّار

علاقة العرب بالحيوانات ضرورة أساسية من ضروريات الحياة منذ أيام الجاهلية، كانت فكانت الإبل وسيلة النقل الرئيسية، والخيول وسيلة القتال، والأغنام والأنعام مصدر الغذاء، والكلاب وسيلة الصيد والحماية، والحمام الزاجل وسيلة الاتصال، والبوم والغربان وسيلة استشراف المستقبل، إلى غير ذلك.

ولعلّ العرب هم أكثر أمة ألفت عبر التاريخ كتباً في الحيوان، فألفوا كتباً كثيرة في الإبل، وكتباً أكثر في الخيل، وكتباً في الطيور، وكتباً في الحيوانات المختلفة، وكتباً في البيطرة والبزرة، ومن أشهر من ألف في ذلك: الأصمعيّ والجاحظ والذميري وابن المرزبان وسواهم. كما احتلت الحيوانات مكانة مرموقة في قصيدة الشعر العربي، حتى غدا وصف الراحلة أو الناقة ركناً أساسياً من أركان قصيدة المدح.

كذلك أصبحنا نجد وصف رقعة الصيد ركناً أساسياً آخر في قصيدة المدح وربما في غير قصيدة المدح، ويكفي أن نجد الشنفرى في لامية العرب يتخذ من كلّ حيوانات الصحراء أصدقاء له. ويقارن بينها وبين بني البشر:

ولي دونكم أهلون سيّد عمّاس وأرقط زهلون وعرفاء جينال

هم الأهل لا مستودع السرّ ذائع لديهم ولا الجاتي بما جرّ يخذل

ونجدهم يكثرّون من وصف الذئاب والغزلان والضباع وحمير الوحش والوعول وأبقار الوحش والأسود وغيرها.

ومثلما دخلت الحيوانات في "فنهم" دخلت أيضاً في تسلّياتهم ورياضاتهم فكانت الفروسية وسباق الخيل وسباق الإبل واسعة الانتشار في حياتهم!

وقد جمع خيال بعض الشعراء، فوصفوا مجابهات متخيلة بين أنواع مختلفة من الحيوان،

ومواجهات متخيلة بين الإنسان وأنواع من الحيوان كمصارعة أسد أو ذئب أو نحوهما. واعتمد الأدباء إنشاء قصص متخيلة جعلوا الحيوانات أبطالها الرئيسيين، كما فعل ابن المقفع في كليله ودمنة، وكما فعل إخوان الصفا في رسالة "تداعي الحيوانات على بني الإنسان" وغير ذلك. ومن أمثلة الشعر على الصراع المتخيل بين الحيوانات، ما صورته قصيدة أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه، حيث يقول:

والدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَاتِهِ شَبَبٌ أَفْزَتْهُ الْكِلَابُ مُرَوَّعٌ

(الشَّبَبُ: المَسَنَ مِنَ الثَّيَرَانِ)

شَغَفَ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتُ فَوَادَهُ فَإِذَا رَأَى الصُّبْحَ الْمُصَدِّقَ يَقْزَعُ
ويعود بالأرطى إذا ما شَفَا قَطَرَ وَرَاحَتَهُ بَلِيلُ زَعَزَعِ

(الأرطى: شجر يعتاده البقر، والبليل: الريح الباردة، والزعرع: الشديدة التي ترزعع الشجر)

يَرْمَى بِعَيْنِيهِ الْغُيُوبَ وَطَرَفَهُ مَغْضٌ يُصَدِّقُ طَرَفَهُ مَا يَسْمَعُ
فَغَدَا يُشْرِقُ مَتْنَهُ فَبَدَا لَهُ أُولَى سَوَابِقَهَا قَرِيباً تَوَزَعُ

(يُشْرِقُ مَتْنَهُ: يَظْهَرُهُ لِلشَّمْسِ)

فَاهْتَاجَ مِنْ قَزَعٍ وَسَدَّ فُرُوجَهُ غَبَرَ ضَوَارٍ وَافِيَانِ وَأَجْدَعُ
يَنْهَشْنَهُ وَيَذْبُهْنُ وَيَحْتَمِي عَبِلُ الشَّوَى بِالطَّرَتَيْنِ مَوْلَعُ
فَنَحَالَهَا بِمَذْلَقَيْنِ كَأَنَّهَا بِهِمَا مِنَ النَّضْحِ الْمَجْدَحِ أَيْدَعُ

(المذلقان: القرنان الحاذقان، الأيدع: صبيح أحمر)

فَكُنْ سَفُودَيْنِ لَمَّا يَقْتَرَا عَجَلًا لَهُ بِشَوَاءٍ شَرِبَ يُنْزَعُ
فَصَرَ عَنْهُ تَحْتَ الْغَبَارِ وَجَنِبُهُ مَسْتَرِبٌ وَلَكَلْ جَنْبِ مَصْرَعِ
حَتَّى إِذَا ارْتَدَّتْ وَأَقْصَدَ عُصْبَةً مِنْهَا، وَقَامَ شَرِيدُهَا يَتَضَوَّعُ
فَبَدَا لَهُ رَبُّ الْكِلَابِ بِكَفِهِ بِيضٌ رَهَابٌ رِيَشُهُنَّ مَقْزَعُ
فَرَمَى لِيَنْقِذَ فَرَّهَا فَهَوَى لَهُ سَهْمٌ، فَأَنْفَذَ طَرَّتِيهِ الْمِنْزَعُ
فَعَبَا كَمَا يَكْبُو فَنِيْقٌ تَارِزٌ بِالْخَبْتِ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَبْرَعُ

(الفنيق: فحل الإبل، التارز: اليايس، الخبت: المطمئن من الأرض)

(المفضليات، للمفضل الضبي ص ٤٢٥-٤٢٧، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤)

وهذا الوصف البارع للصراع بين الثور الوحشي وكلاب الصيد ثم تدخل الصيد يكاد يطابق إلى حد كبير ما كان يجري في ميادين الرياضة في غرناطة، مما سنبينه فيما بعد، إلا أن في هذه القصيدة وصفاً متخيلاً، وأن في القصائد الأندلسية وصفاً لمصارعة حقيقية معداً لها مسبقاً وفق أصول متبعة. ومن الشعر الذي يصف الصراع بين الإنسان والحيوان قصيدة المتنبي في وصف مواجهة بدر بن عمار مع أسد، ومطلعها:

في الخدان عزم الخليط رحيلاً مطر تزيد به الخدود محيلاً

ومنها:

وردة إذا ورد البحيرة زائراً ورد الفرات زئيرُهُ والنيل
يطأ الثرى مترقفاً من تيهه فكأنه آس يجسُّ عليلاً

(العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، الشيخ ناصيف اليازجي، ١٤٥)

وهذه القصائد تمثل في رأيي توثيقاً وتطلعاً إلى اتخاذ الصراع بين الحيوانات، أو الصراع بين الإنسان والحيوان وسيلة من وسائل التسلية. فإذا ما نظرنا في التاريخ العربي القديم وقفنا على نصوص تدل على أن العرب استخدموا هذا النوع من التسلية، ففي كتاب: الحقائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية لحמיד الهمداني (مخطوط بمكتبة الجامعة الأردنية تحت رقم ١٩٥٦، ١/١٨٧) رسالة من يحيى بن عبد الله العلوي إلى الخليفة العباسي الرشيد يقول له في فصل منها "تارة تغري بين البهائم لمناطحة كبش أو مناقرة ديك أو مهارشة كلب".

وفي رسالة التوابع والزوابع (تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٥٠) يقول ابن شهيد عن الإوز في الأندلس: "وأنا الذي استرجعتها إلى الوطن المؤلف، وحببتها إلى كل غطريف، فاتخذتها السادة بأرضنا واستهلك عليها الظرفاء منا، ورُضيت بدلاً من العصافير، ومتكلمات الزراوير، ونسيت لذة الحمام، ونقار الديوك، ونطاح الكباش".

ويفهم من عبارة ابن شهيد (ت ٤٢٦هـ) أن الأندلسيين كانوا يتخذون من نطاح الكباش ونقار الديوك تسلية لهم.

وقد عرف الأندلسيون كذلك "حقائق الحيوان"، فتذكر المصادر أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (ت ٣٥٠هـ) اتخذ في مدينة الزهراء "محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظلة بالشباك" (نفح الطيب للمقري ٥٧٨/١ تحقيق د. إحسان عباس).

وهناك عوامل عدة ساعدت الأندلسيين على العناية بمصارعة الثيران، ومن أبرز هذه العوامل:

١. أن هذه الرياضة كانت معروفة في الأندلس إبان العهد الروماني قبل مجيء المسلمين حيث يذكر بارنابي كونراد Barnaby Conrad مؤلف كتاب ماتادور Matador (ط ١٩٧٠) أن يوليوس قيصر ربما تكون له يد في إشراك الثيران في ألعاب السيرك في إشبيلية القديمة (Encyclopaedia Americana, art. Bullfighting)

كما يذكر بارنابي كونراد أن الإسبان إبان الوجود الإسلامي في الأندلس كانوا يعرفون مصارعة الثيران، ويذكر أن السيد الكمبيوتر Rodrigo Diaz de Bivar صاحب الملحمة المشهورة كان أول من نظم حفلا لمصارعة الثيران في سنة ١٠٩٠م.

(نفسه)

٢. أن الأندلسيين قد ورثوا عن سكان إسبانيا القدماء من رومان وغيرهم مسارح وميادين رياضية في معظم مدن الأندلس، ومن أمثلة ذلك ما يقوله ابن سعيد الأندلسي عن حصن مُرتَبَط من حصون بنسية:

"هي من المدن الرومية المشهورة بالأندلس، فيها آثار عظيمة، وأعظمها الملعب الذي أمام قصرها، وهو صنوبري الشكل، وقد ارتقى بأحكام صنعة درجة درجة، إلى أن تكون الدرجة العليا لا يجلس فيها إلا الملك وحده، ثم ما انحدر منها اتسع المكان، بحسب الطبقات إلى أن تكون الدرجة الأخرى لجمهور من يلوذ بالملوك من غير الخاصة المقرّين".

(ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب ٢/٢٧٥ تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٥٥)

٣. كثرة انتشار الفروسية ولعابها المختلفة عند الأندلسيين فكانت مصارعة الثيران صورة من صور التدريب على الفروسية والمطاعنة وأعطتهم فرصة للتدرب على القتال، بالإضافة إلى ميلهم إلى الترفق والتسلية الرياضية.

٤. كثرة انتشار الثيران في إسبانيا والأندلس والمغرب، وهناك الكثير من الأدلة على أن الأندلسيين والمغاربة كلهم كانوا يحوزون أعداداً كبيرة من الثيران سواء مما في بلادهم أو مما يحصلون عليه من غنائم الحرب.

قد ورد في كتاب البيان المغرب لابن عذاري المرآة أن عبد المؤمن بن علي أعطى أربعة أولاد توفي أبوه في دار قريبة من تلمسان "أعطى كل واحد منهم ألف رأس من الغنم ومثلها من البقر..."

(قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تلويت وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ودار الثقافة/ الدار البيضاء ١٩٨٥، ص ٨٠-٨١)

ويتحدث ابن عذاري في موضع آخر عن أحد انتصارات أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في

العربي

*** التراث ***

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

شنترين سنة ٥٨٠هـ نقلًا عن أبي مروان ابن صاحب الصلاة: "لقد رأيت في هذا اليوم ثورا يبدع عربي باعه بدرهم واحد، ولقد اشترت مع أصحابي بقرة سمينه بثلاثة دراهم، وامتأت المحلات على كثرتها وكبرها من البقر والغنم" (ص ١٦٠).

وفي كتابه "جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى" يتحدث أبو يحيى بن عاصم الغزنائى

وفي كتابه جنة الرضا في التبيين لما ذكره في تاريخه عن أبيه عن حماد بن عيسى عن
عن أحد انصاره محمد الأيسر بن الأحمر، على الإسبان في مدينة ابن السليم قتلًا، فهاك نقله الله
المغانم التي تجاوزت عشرين ألف رأس من البقر، ونحوها من الغنم (جنة الرضا ١/٣٢٤ تحقيق د. محمد
١٤٠٥ هـ) فهاك نقله

المغزم التي جاورت صيرين القاسم من البئر وكرو
صلاح جرار، دار البشير، عمان، ١٩٨٩) وفي موضع آخر يتحدث عن هجوم سنة ٥٨٤ للمسلمين قام به
القائدان أبو اسحق ابراهيم بن عبد البر وأبو القاسم بن السراج على الحدود الغربية لمملكة غرناطة

يقصد الغارة على أرض الحرب في طلب البقر، إذ كانت الجيوش المتزودة لأرض الحرب تحدها ساحة إلى أحواز أرض المسلمين منتجعين بها مواقع القطر من تلك الجهات (جبهه الرضاه ٢٨٧/٢)

ويضيف ابن عاصم أنه في أثناء خروج القائلين التقيا بجيش قسطلي عند مربلة، فوقع مجتبه

ويضيف ابن عاصم أنه في أثناء خروج المسلمين من القسطنطينية، أُخذوا نحو مائة وأربعون أسيراً "أخص فإبراهيم النقيض بالوطن" (نفسه ٢/٢٨٨) ثم تم إرسالهم إلى مصر.

القناتين مائة وأربعون اسيراً أرحص، فأولهم القنات أبو ص. (الخطبة ١٤٠٢) ففي حديثه الحديث عن سيد
وولده عليّ نقابة نقابة الخراب ليسان الدين بن الخطبة (١٤٠٢) في حديثه الحديث عن سيد

موسى من حجاجهم بكافة القلوب من غير اكتر ولا يقلول في وصفه الغاصب على انفسناح ودهاء ليلنا غص

والتأغية والصاملة والناقة، البالغ عددهن أربعة آلاف في أرض مصر، في حين أن
أزواج الثيران مثير أرضه وتعالج حبه، ويقع ٢٠٥٧٢ ببقها، وهي ببقها، في حين أن

وفيه من هذه الروايات وغيرها أن بلاد الأندلس كان فيها من الثيران والبقر أعداداً كبيرة.

[illegible]

وینکره جاران باغی و کوهنوردان بفرماندهان لشکر و بیگانهان بیرون می
 فی الاندیش از این جهت اتصال هم الطریق ادا نمائند و آن هم لایم القوه و آن
 کما هو الخط و درین قطعات از القوه
 فی انجمن بلا خلیستان

وهم يهزمون الحيوانات برماحهم كلما أدركوها.

وكانت السرايا تملك قبل نهاية القرن الحادي عشر الميلادي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي مع الفتيان المشي

لوجه (Encyclopaedia Americana, art. Bullfighting) وقد ترجمت في قاموس المورد: "مبارزة الثيران".

إلى ممارسة مصارعة الثيران.

[illegible]

نم لهائم وفتان نم رمال سفا ومجمه شعاع

الأحمر مصارعة الثيران، ولعل ذلك مرتبط بميل الأندلسيين

عرف الأندلسيون في عصر بني الأحمر مصارعة الثيران، ولعل ذلك مرتبط بميل الأندلسيين

في ذلك العصر إلى إنجلترا من الأحفاد الأثري والمباحة فيها واستعمل كل مناسبه دينية أو اجسادية
طنية له - أكل الطعام تلك الأحفاد وكانت الأحفاد لا تقوم أساساً على مباريات الفروس

وطنية لكن أجل القيام بتلك الأحداث، وكانت الأحداث ترمز إلى
والعروض التي كانت ترمز إلى تلك الأحداث، والإنسان في هذا ما بينه وبين الكثير من التي قيلت في

وصف تلك الاحتفالات وبخاصة قصائد لسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وأبو اسحق النميري

القراثة العربي

الكتاب

وغيرهم.

ويستفاد من قصيدة لسان الدين بن الخطيب في وصف مجموعة من الألعاب الرياضية جرت بمناسبة إعدام ابن السلطان الغني بالله محمد الخامس ابن الأحمر من هذه الألعاب، ومن بينها مصارعة الثيران، قد أقيمت على ملعب روماني في نينيجا يومه

وقامت على منحوتة من زبرجذ تحت على الصنم الصلاب إذا تخطو

وكل عتيق من تمايل رومنة تاتي في استخطاطه القس والقمط

(نفع الطيب ٦٢/٦، تحقيق د. إحسان عباس)

ويستفاد من قصيدة لأبي اسحق إبراهيم بن عبد الله ابن الحاج التميمي (ت بعد ٧٦٨هـ) في وصف هذه الأنواع من الرياضة، أن الهدف منها كان التثقيب على القتل والمطاعنة استعدادا للجهاد، حيث يقول (عن الغني بالله):

فذلك منه للجهاد تدرب سيبقى به الحزب الذي دان بالكفر

(قرائن القصر ومحاسن العصر في مدح أمير المومنين أبي عبد الله بن نصره مخطوط رقم Or. ٥٦٧ في المتحف البريطاني، ص ٢٥)

ولولا وصول بعض القصائد التي تصف احتفالات الأندلسيين بمناسباتهم الدينية والاجتماعية والوطنية لضاع دليل مهم من أدلة انتشار هذه الرياضة عند الأندلسيين. ومن هذه القصائد قصيدة لعبد الله بن لسان الدين بن الخطيب قالها في إعدام ابن السلطان الغني بالله، مطلعها:

أثرها عزمة تنضى الركاب وإن دميت لها العين انسكابا

(الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب/ نصوص جديدة لم تنشر، تحقيق عبد السلام شقور، ١٩٨٨، نفع الطيب للمقري ٢٩٥/٧، تحقيق د. إحسان عباس)

ويصف عبد الله ابن لسان الدين الألعاب الرياضية التي جرت في تلك المناسبة، وقدّم لها لسان الدين بأنها مما "جرت عادة ملوك الأندلس في مثله" بأن الملوك الأندلسيين كانوا يلعبون بها

(الإحاطة/ نصوص جديدة ١٢٨)، مما يعني أن مصارعة الثيران كانت عادة جارية عند ملوك الأندلس في مثل تلك المناسبات.

ومن أبيات هذه القصيدة في وصف المصارعة بين الثور والكلاب الرومية Bull Dogs قوله مخاطبا السلطان:

وطاردت الصوار بكل صار
كما أتبعته عفتاً شهاباً
ضربت به على الأذان منها
فلم تسطع حراكاً واضطراباً
ومعصوب الجبين بتاج روق
يدوع خواره الأسد الغضاب
تعرف أن تحت الأرض ثوراً
فرام بأن يشق له التراب
وكلت به هضم الكشح أجنى
حديد الناب تحسبها حراباً
تباعده مجمع الشدقين منه
وسال الموت بينهما لعباً
فأثبته كوحى الطرف حتى
توثق منه جازره غلاباً
وصاح به الصوار وقد رآه
حبس الكلب قد منع الإياب
"فصن الطرف إنك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً"

(وردت الأبيات في الإحاطة /نصوص جديدة ١٢٩-١٣٠، ونفح الطيب ٢٩٧/٧)

وأما القصيدة الثانية فهي للسان الدين بن الخطيب قالها في مدح سلطانه الغني بالله، وقد قدم لها لسان الدين بمقدمة ذات أهمية خاصة في التعرف على جوانب من مصارعة الثيران في غرناطة، حيث يقول:

"وقولي في امتداح سلطاني لما احتفل لإعذار ولده واستركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجو المسمى بالطبلة، وأرسل جوارح الأكلب العظام، المجتلبة من أرض ألان، خلف فحول البقر الطاغية الشرس، تمسكها من آذانها وأجنابها، حتى تتمكن منها الرجال". (الإحاطة ٤٨٢/٤ تحقيق محمد عبد الله عنان)

وينقل صاحب نفح الطيب كلاماً مشابهاً لسان الدين بن الخطيب في تصدير هذه القصيدة، حيث يقول:

"ولما احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب، وتشتمل على أوصاف من ذكر الحلبة التي أرسلها، والطلبية التي نصبها في الهواء للفرسان يرسلون العصي إليها، والثيران التي أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها في صورة القرط من آذانها" (نفح الطيب ٤٥٩/٦)

وأما مطلع القصيدة فهو:

شحتت وفود الليل بان به الوخط وعسكره الزنجي هم به القبط

*** التراث العربي ***

وأما الأبيات التي تصف مصارعة الثيران، فهي:

وأغرّبت بالبهيم العلاج تحفياً	فلم يذخر الشيء الغريب ولا السيمط
أنت صورة معلولة عن مزاجها	السيمط: الخفيف الجسم
قضيت بها دين الزمان ولم يزل	وأصل اختلاف الصورة المزج والخلط
وأرسلت يوم السبق كل طيرة	أكد كذوب الوعد يلوى ويتشتت
رنت عن كحيل كالغزال إذا رنا	كما قذف الملمومة النار والنقط
وقامت على منحوتة من زبرجد	وأوفت بهاء كالظلم إذا يخطو
وكل عتيق من تمايل رومة	تخط على الصم الصلاب إذا تخطو
	تألق في استخطاطه القس والقنط

وطارنت مقدام الصوار بجراح	يصاب به منه الصمخ أو الإبط
متين الشتوا في رأسه سمهريّة	مقصرة عنهن ما ينبت الخط
وقد كان ذا تاج فلما تعلقا	بسامعتيه زانه منهما قرط

(الإحاطة ٤/٤٨٢، نفح الطيب ٦/٤٦٢)

ويستطيع الدارس لهاتين القصيدتين وما جاء في تصديرهما أن يتبين بعض ملامح تلك المصارعة في غرناطة في عصر بني الأحمر، فهي مصارعة يشترك فيها ثلاثة أطراف: الثور والكلاب الرومية ثم الفرسان، إذ تطلق الكلاب الرومية الضخمة الجارحة على الثور فتعلق بأذنيه وتهاجم جنبه حتى تستثيره، فينزل عند ذلك الفرسان لمصارعة الثور وقد احتدم غضباً وأنهكه التعب فيتمكنون منه برماحهم.

ويتضح من التصدير لهاتين القصيدتين أن هذه المصارعة لم تكن تحدث مصادفة بل كان يعد لها مسبقاً بدليل حرص ملوك بني الأحمر على اجتلاب الكلاب الرومية الخاصة للمصارعة من بلاد الروم.

وقد كان أهل غرناطة ممن يُعنون بتربية الكلاب ورعايتها، فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب في ترجمته للبرميخو أحد ملوك بني الأحمر أنه كان قوَّاد عصبية من كلاب، معالجاً لأمراسها، مباشراً للصيد بها" (الإحاطة ١/٥٢٣)

ولعل استخدام قطعة القماش الحمراء في أثناء مراوغة الثور تقتزن باللون الرسمي لدى دولة بني الأحمر في غرناطة، وهو اللون الأحمر، فقد ورد في القصائد التي تصف احتفالات بني الأحمر التي

العربي الغزنوي

كانت تجري فيها مصارعة الثيران، وصف لأعلامهم الحمراء التي يرفعونها في أثناء الاحتفالات، فمن قصيدة لابن زمرك الغرناطي قالها سنة ٧٦٤هـ في إحدى الإعذاريات السلطانية ويصف الألعاب الرياضية، يشير إلى ابن زمرك إلى اللون الأحمر المعتمد شعاراً لبني الأحمر قائلاً:

ولك القبابُ الحُمْرُ تَرْقَعُ لِلنَدَى فترى العمام تحتها كالأنجم

(نفع الطيب ١٨٥/٦)

حيث القبابُ الحُمْرُ تَرْقَعُ لِلنَدَى قد غام في أرجائهنَّ المتدلُّ

أبديت من حسن الصنيع عجباً تروى على مر الزمان وتنقلُ
خفت به أعلامك الحُمْرُ التي بخفوقها النصرُ العزيزُ موكلُ

ويشير ابن الحاج النميري في مناسبة إعذارية أخرى إلى البنود الحمراء قائلاً:

ولئن خُفِرَ البنودُ كأنها بدم الأعادي في الحروب تُضْرَجُ

(قرائن القصر ص ١٠)

ويصف بني الأحمر في قصيدة أخرى قائلاً:

لبسوا قميص البأسِ أحمرَ وارتدوا بردائيه والخيل ذاتُ قِمَاص

(قرائن القصر ٤٠)

ولعل هناك علاقة بين القبة الحمراء التي ذكرها بعض شعراء الأندلس والتي تقام إبان الاحتفالات، وبين ما يعرف حالياً باسم Barrera وهو سياج من خشب أجير يوضع حول الحلبة التي

تجري بداخلها مصارعة الثيران. S.P.Scott عن مصارعة الثيران عند مسلمي الأندلس في كتابه: History Of the Moorish Empire in Europe (ط. لندن ١٩٠٤، ج ٣/ ص ٦٦٧-٦٦٨):

"وفي رياضيات الفروانية التي تتطلب أعلى درجة من الحذق والرشاقة، لم يتفوق أحدٌ على المسلمين في إسبانيا.

وكانت أولى تسلياتهم التي تحمل هذا الوصف هي مصارعة الثيران التي لا نجد لها إلا القليل في مشهد المصارعة المعاصرة التي تمثل نتيجه الدموية والوحشية المستمرة الملمح الصارخ لها.

بينما اللاعبون المسلمون كانوا جميعهم من أصول أرستقراطية نبيلة، وكانوا دائماً ركوباً بشكل رائع مذهش، وكانت عذبتهم بالغة الفخامة. ولم يكن يُسمح لهم باستخدام أي سلاح سوى رمح قصير ثقيل رأسه مُخلف بقطعة من الجلد. وقد تطلبت قواعد هذه الرياضة بأن يُقتل الثور بطعنة واحدة في العمود الفقري أمام الكتف، مما يتطلب مهارة عظيمة وقوة فائقة غير عادية، وإذا وقعت الضربة في مكان آخر فإن الفارس يُخبر على ترك اللعبة، وإذا كسّر سلاحه أو فقد فائه كان يُنظر إليه على أنه اقترف خطأ لا يمكن محوّه. وكان الذكاء وتدريب الفرس وبراعة راكبيها هي الضمانات الكافية لعدم وقوع الكارثة، ولكن تضحية الفارس في بعض الأحيان كانت تذكر الباقين على قيد الحياة بالأخطار المخيفة للمواجهة.

ولكونهم مدربين منذ الطفولة المبكرة على ركوب الخيل واستخدام الرماح ومعتادين جميع أنواع التمرينات الرجولية، ومهرة وخبراء في فنون المباريات والمباراة، فإن مسلمي إسبانيا وجدوا في مصارعة الثيران ذروة الاستمتاع إلى جانب متعهم المادية والإثارة الناتجة عن الحروب. وبمثل هذا التعليم فإنه ليس غريباً أنهم كانوا يتميزون بآرقى أنواع الفروسية الخفيفة في أوروبا. وجاء في الموسوعة البريطانية (Encyclopaedia Britannica art. Bullfighting, ed. 1966) "عدّل

المسلمون الذين جاؤوا من أفريقيا والشاميون الذين اجتاحتهم الأندلس سنة ٧١١ ميلادية، عدّلوا بشكل تدريجي الألعاب الموجودة بأن أضافوا إليها المذاق الأرسكي الراقي والخيال الشرقي الرائع. وبما أن المسلمين عرفوا بالفروسية فإن كرامتهم استدعت أن يأخذوا الرمح من تابعيهم بحيث يصبح هؤلاء التابعون أقلّ منهم شأنًا في مصارعة الثيران فجعلوهم ببساطة ينازلون الحيوانات على الأقدام، بحيث يغدو سادتهم الذين يمتطون الخيل قادرين على تأدية الدور لهم بصورة أفضل.

وقد أعاد المسلمون بناء المسارح الرومانية المتداعية وتزيينها في إشبيلية وقرطبة وطليطلة وطركونة وماردة وقادس.

وقد تطورت المباريات نتيجة للمنافسة بين زعماء المغاربة والفرسان المسيحيين من سكان الأندلس.

وكانت الاحتفالات تقام في الميادين العامة التي أخذت حُلّبات مصارعة الثيران أسماءها منها، وربما أقيمت في الهواء الطلق خارج القرى.

أما المدن الرئيسية فقد تباهت بما كان لها من مسارح خاصة بذلك.

ويعتقد بأن أول قشتالي طعن الثور برمح من على ظهر فرسه هو Rodrigo Diaz de Vivar المعروف بالسيّد الكمبيدور (1043-1099م).

وبعد أن أخرج المسلمون من إسبانيا على يد فردناند وإيزابيلا سنة ١٤٩٢م استمرت مصارعة الثيران بواسطة الرماح الرياضة المفضلة للأرستقراطية.

خاتمة:

يتبين من خلال هذه الدراسة أن مشهد مصارعة الثيران كان حاضراً في مخيلة الإنسان العربي منذ العصر الجاهلي. كما دلت عليه قصيدة أبي ذؤيب الهذلي، وأن الظروف الاجتماعية والتاريخية والطبيعية التي عاشها العرب في الأندلس والمغرب قد هيأت لهم فرصة ممارسة هذه الرياضة ممارسة واقعية! وأنهم مارسوها بصور مختلفة في فترة زمنية مبكرة جداً. غير أننا نلاحظ اختلافاً بسيطاً في صور ممارسة هذه الرياضة عند الأندلسيين وعند المغاربة، وتدلّ الإشارات القليلة في مقدمات القصائد التي تصف هذه الرياضة في المغرب والأندلس، أن مصارعة الثيران كانت عادة جارية عند ملوك البلدين.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن المصطلح العربيّة كادت أن تغفل الحديث عن هذه الرياضة لولا بعض القصائد التي قالها شعراء من الأندلس والمغرب ففي وصف الحفلات بالبلدين بالمقاسبات المختلفة، وعلى الرغم من كثرة مؤلفات الأندلسيين والمغاربة عن الفروسية مثل مؤلفات ابن هذيل القرطبي وابن جزي الكلبّي وغيرهما، إلا أن هذه المؤلفات لم تتعرض لهذه الرياضة.

وأخيراً فإنني أتساءل: ما السبب في انحسار هذه الرياضة في بلاد المغرب، واستمرارها في إسبانيا؟

